القناص

للكاتب الأمريكي: ليام أو. فلارتي

تبخّر غسق شهر «يونيو» الطويل وذاب في كبد الليل وبدت مدينة «دبلن» وقد احتجبت داخل أردية كثيفة من دامس الظلمة... إلا من شعاعاتٍ واهنة يسكبها القمر لجيناً مشعاً ينساب بين طيات السحب بين الفينة والأخرى... لتصب في الأروقة والطرقات كشعاعات الفجر الأولى تنعكس في صمت وذبول فوق صفحة نهر «ليفي». ولعلعت البنادق في المنطقة المحيطة بمدخل «الساحات الأربع» المحاصرة فيما أقضّت مهجع المدينة برمتها أصوات الرشاشات المتفرقة تئزّ بين الحين والحين كنباح كلاب مسعورة يأتي رجعها مؤلماً مخيفاً... من آخر المدى. كانت ثمة حرب أهلية تدور رحاها في إيرلندا بين الجمهوريين وجماعة حركة الأحرار الذاتية. وعلى سطح إحدى النباتات بالقرب من جسر «أو كونيل» جثم قناص جمهوري يرصد ما حوله وإلى جانبه كانت ثمة بندقية معمرة، فيما علق منظاراً على كتفيه. كانت له ملامح طالب... وجهه كان صارماً... نحيلاً ينبئ بالزهد والتنسك، لكن شعاعاً بارداً كان ينطلق من عينيه في صرامة وقسوة... تينك العينان... شد ما كانتا عميقتين معبرتين... ولا عجب فقد اعتادتا على مصافحة مرأى الموت أياماً وليال كان الرجل يقضم شطيرةً بنهم، إذ إنه لم يذق منذ صباح ذلك اليوم شيئاً، فقد كان في شغل عن ذلك. ألهته رهبة الموقف فبدا مثاراً مهتاجاً... وأنهى شطيرته فأخرج شيئاً من الشراب تناول جرعة منه وأعاد الوعاء إلى جيبه. وتوقف لوهلة متسائلاً عما إذا كان بإمكانه المجازفة بإشعال لفافة تبغ... وبدا له الأمر غاية في الخطورة إذ إن وهج الثقاب قد يلفت إليه أنظار الأعداء المتربصين به... على أنه قرر المخاطرة... وضع اللفافة بين شفتيه وأشعل عود ثقاب... وفجأة أزت رصاصة فوق رأسه فارتمى أرضاً في الحال...

لقد أبصر مصدر الرصاصة... انطلقت من الناحية الأخرى للشارع... وتدحرج على أرضية السطح حتى حاذى جدار المدخنة ثم زحف إلى أن أصبح على مستوى المتراس المقام أمامه. ولم يكن بالإمكان رؤية شيء غير خطوط الهيكل الخارجي الداكنة لأعلى المنزل المقابل في عتمة المساء . كان عدوه ممعناً في الاختباء حدّ استحالة تحديد مكانه.

في تلك اللحظة تماماً عبرت سيارة مسلحة الجسرَ، وتقدمت عبر الشارع ببطء قبل أن تتوقف على بعد خمسين قدماً منه وكان بإمكان القناص سماع لهاثها الرتيب وتعالى وجيب قلبه أكثر فأكثر... كانت إحدى سيارات العدو وخامرته رغبة في إطلاق النار عليها لكنه عدل عن ذلك بعد أن أدرك أن المدرعة محصّنة ضد الرصاص... (لن يتسنى لرصاصي اختراق الجدار الفولاذي لذلك الوحش الرمادي!) قال لنفسه في غضب مكبوت ومن منعطف إحدى الشوارع الفرعية أقبلت امرأة عجوز!

كانت ترتدي وشاحاً مهلهلاً وسارت حتى بلغت المدرعة وشرعت تتحدث مع رجل أطل من برجها قبل أن تشير إلى السطح الذي يقبع القناص فيه. فهي مخبرة إذاً. قال القناص لنفسه في كمد. وانفتحت فوهة برج المدرعة ثم... تمخضت عن رأس رجل فكتفيه وذعر القناص وهو يراه ينظر صوبه فما كان منه إلا أن رفع بندقيته وأطلق النار تجاهه وسقط الرجل على حافة برج المدرعة بعنف... وعدت المرأة في ذعر إلى الشارع الجانبي لكن القناص سدد ثانية فأرداها قتيلة! ترنحت ثم سقطت في إحدى قنوات الشارع الجانبية بعد أن أطلقت صرخة رعب تردد صداها، وفجأة أزت رصاصة من سطح العمارة المقابلة تجاه القناص الذي ألقى ببندقيته على الأرض فجأة فتدحرجت بعنف محدثة صخباً خال القناص أنه سيوقظ الموتى، وتوقَّف كيما يلتقط بندقيته لكنه لم يستطع رفعها... كانت ذراعه ميتة:

ـ يا إلهي ـ تمتم في رعب ـ لقد أصبت!.

وزحف إلى المتراس ثانية ثم تحسس بيده اليسرى موضع الألم في ذراعه اليمنى المصابة... لم يكن ثمة ألم هناك... شعور تام بالخدر فقط كما لو كانت قد بترت. وفتح القناص سكّينه بعد أن وضعها على صدر المتراس ثم قدّ كُمَّ قميصه فبصر بالثقب الذي نفذت الرصاصة عبره... ولم يكن في الناحية الثانية من ذراعه ثقب آخر فهي إذاً... قد استقرّت في عظمه... وأحدثت به شرخاً دون شك وثنى ذراعه أسفل الجرح فانثنت بمرونة، على أنه صرّ على أسنانه لشدة ما استشعر من ألم أطار صوابه وفتح علبة الضماد بسكينه فأخرج منها زجاجة المطهر وصبَّ منها على الجرح كمية لابأس بها وشرع يتأمل ذلك السائل الأحمر المرّ... ينزلق إلى مدارات الجرح الفاغر فاه في ذراعه واجتاحته نوبة من الألم مجدداً فوضع قطعة قطن فوقه ثم لفه بضماد ربط طرفيه بأسنانه وما أن أنهى ذلك حتى اتكأ على حافة المتراس وأغلق عينيه في محاولة لقهر الألم.

كان الهدوء يعمّ أرجاء الشارع أسفل منه... وألقى نظرة على المدرعة المسترخية فوق الجسر وجثة الجندي لاتزال معلقة على حافة برجها... وعلى إحدى قناتي الشارع كانت جثة المرأة قابعة لما تزل!

ومكث القناص في مخبئه طويلاً في محاولة لنيل قسط من الراحة، ورسم خطة مستقبلية لما يتحتم عمله قبل أن تنفتح أكمام الصباح عنه وهو لا يزال في مكمنه... مصاباً ثقيل الحركة، وفكر في العدوّ الجاثم أمامه في المبنى المقابل... لن يستطيع مغادرة مكانه خوفاً منه... باتت مسألة قتله ضرورة حتمية ـ قال لنفسه ـ والليل يوشك أن ينقض غزله ويرحل... على أنه لم يكن بمقدوره أن يستخدم بندقيته لهذا الغرض... ولم يكن لديه خيار سوى توظيف مسدسه كحل وحيد... ولذا فقد قدح زناد فكره مرات عدة حتى توصل إلى حل لمعضلته. وبادر إلى قبعته فخلعها بحذر... ثم وضعها على فوهة بندقيته ودفع بالبندقية عبر المتراس شيئاً فشيئاً حتى أصبحت في موضع يتيح للجاثم في المبنى المقابل رؤيتها... وفجأة انطلقت رصاصة اخترقت وسط القبعة. عندها أمال القناص

البندقية إلى الأمام فسقطت القبعة إلى أسفل الشارع تباعاً... ثم أمسك بالبندقية من منتصفها وجعل يده اليسرى تسقط دون حراك... وبعد دقائق عدة ترك البندقية تهوي إلى الشارع قبل أن يزحف على أرضية السطح ساحباً ذراعه المصابة، وما أن حاذى الزاوية المطلوبة حتى استرق النظر إلى خصمه... وأدرك أن خطته قد نجحت وبأن الحيلة قد انطلت عليه ـ إذ إنه كان قدهبّ واقفاً بين أشباح المداخن وقد ارتسمت الحدود الخارجية الداكنة لجسده منطبعة على أفق السماء الغربية، فأيقن بأنه قد قتل خصمه وابتسم القناص الجمهوري وهو يرفع مسدسه فوق حافة المتراس... كانت المسافة الفاصلة بينهما لاتزيد عن الخمسين متراً... ولم تكن مهمته سهلة في جوف ذاك الليل البهيم، والألم في ذراعه يتلظى كألف مرجل. على أنه سدد بدقة وثبات وأرعش الحماس يده... فزمّ شفتيه وجذب نفساً قوياً عبر أنفه ثم... ضغط على الزناد... وكاد الصوت يصم أذنيه فيما اهتز جسده بعنف... وما أن تلاشى دخان تلك الطلقة الهائلة حتى استرق النظر عبر الزاوية مجدداً قبل أن يطلق صرخة فرح. لقد أصاب خصمه الذي ظلّ نزع الموت يدحرجه فوق المتراس وهو يحاول تثبيت قدميه عبثاً... ليهوي في النهاية... كما لو كان في أدغال حلم سرمدي فيسقط رشاشه... مرتطماً بعمود صالون الحلاقة أسفل الشارع قبل أن يقرع صليل ارتطامه بالأرض أسماع الليل.

وواصل الجندي المحتضر سقوطه فتدحرج من علٍ، وهوى ليرتطم بأرضية الرصيف حيث ظلّ هناك... دون حراك.

وتأمل القناص عدوه وهو يهوي... لكن قشعريرة هزت جسده فجأة... ماتت شهوة المعركة داخله! واستشعر أنياب الندم تنهش دون هوادة فؤاده... وتناثرت حبات العرق على جبينه..... كان الجوع والإنهاك وأثر الرصاصة في ذراعه ومرأى ذلك الجندي يهوي أمامه ليموت ميتة بشعة... ذلك كله كان كمعول جبار شرع يحفر في أعماق كيانه بدقات رتيبة رهيبة أنّ لها جسده واصطت معها أسنانه... وشرع يهذي صاباً جام نقمته على الحرب وعلى نفسه... وعلى الكون والناس طراً.

وتأمل مسدسه ملياً... كان الدخان لايزال يتصاعد من فوهته... وأبرم في داخله عهداً قبل أن يقذف به فيرتطم بالأرض بشدة وتنطلق منه رصاصة تمر فوق رأسه ملعلعة مدوية وتعيد الصدمة إليه صوابه... وهدوء أعصابه ورباطة جأشه... فإذا هو يضحك في ابتهاج ساخراً من نفسه.

وتمتد يده إلى القارورة في جيبه فيفرغ ما بها في جوفه دفعة واحدة ويخامره شعور غامر بترك المكان واللحاق برفاقه، فيما كان الصمت يغلف أرجاء المدينة...: ـ لم يعد هناك ثمة خطر من التجوال في الشوارع...! قال في نفسه قبل أن ينحني فيلتقط مسدسه ويضعه في جيبه ثم ينزلق على الجدار هبوطاً إلى الشارع، وما أن وطئت قدماه الأرض حتى غزته رغبة شديدة في التعرف على هوية الرجل الذي قتل... تملكه فضول لايقاوم في إلقاء نظرة على ذلك القناص الآخر... ـ من أمهر الرماة هو دون ريب ـ اعترف لنفسه ـ

كائناً من كان!

وعقد العزم على المجازفة بالعودة إليه... ترى هل يعرفه؟ تساءل... قبل أن يلقي نظرةً قلقة على الناحية الأخرى من الشارع... كان القتال هناك على أشده وأزيز الرصاص يجرح فوهات البنادق المذعورة أما هنا... حيث يقف... فلا شيء سوى سكوت الموت! وعاد إلى التساؤل ثانية عمن يكون القتيل... ربما... ربما كان أحد رفاقه في الجيش قبيل الانفصال!

واستجمع شجاعته ثم انطلق كالسهم باتجاه الآخر... وفجأة مزقت الأرض حوله رشقات انطلقت من مدفع رشاش كسيل من حبات البَرَد إلا أنه نجا منها بأعجوبة وارتمى على الأرض ووجهه إليها... بجوار القناص القتيل... ومكث في وضعه لا يحرك ساكناً حتى سكت صوت الرصاص وساد هدوء ما بعد العاصفة... عندها قلب القناص الجثة وألقى على ملامحها نظرة خاطفة عرف فيها وجه أخيه!

❀❀❀